ا**لمحاضرة الثالثة عشر:**

**فلســــــــــــــفة القديس توما الاكويني.**

**1-حياة توما الإكويني ومؤلفاته:**

**أ- حياته:**

ولد توما الاكويني Thomas D’Aquinفي بمدينة اكوين بنابولي (إيطاليا) سنة 1225، في سن قصيرة صغيرة جدا التحق توما بدير مونت كاسينو وهو في الخامسة من عمره، وبقي في ذلك الدير يتعلم إلى غاية سنة 1239 ليلتحق بعدها بجامعة نابولي أين اكتشف لأول مرة أفكار أرسطو. وفي نابولي انجذب إلى دير للدومينيكان حيث انخرط في سلكهم سنة 1244 على الرغم من رفض عائلته. في سنة 1244 سافر إلى باريس وهناك تتلمذ في كلية اللاهوت على يد الفيلسوف ألبير الكبير، ومن باريس رحل مع معلمه إلى كولونيا لادرات مدرسة جديدة في اللاهوت وبقي هناك إلى غاية 1252 ثم عاد إلى باريس ليواصل دراسته حيث تحصل على شهادة الاستاذية في اللاهوت في سنة 1256 التي ستمكنه من التدريس في كلية اللاهوت واشتغل كمدرس في تلك الكلية إلى غاية 1259 وبعدها شد الرحال إلى ايطاليا للتدريس في "مدرسة البلاط البابوبي" وظل مرتبطا بها إلى غاية 1268. وطيلة هذه المدة الممتدة من 1259 إلى غاية 1268 ظل منتقلا بين المدن الايطالية : أنجاني وارفيتيو وروما. وبعدها عاد توما إلى باريس وحاضر هناك إلى غاية 1272 وبعدها سافر إلى نابولي لا نشاء معهد لاهوتي جديد للدومينيكان واشتغل فيه مدرسا إلى غاية 1274، ثم ترك نابولي تلبية لرغبة البابا جريجوري العاشر الذي دعاه إلى ليون ليشارك في "مجمع ليون" وفي طريقه إلى البابا جريجوري أصابه مرض واضطر للتوقف في مدينة فوسانوفا بين مدينتي نابولي وروما وهناك توفي في 7 مارس 1274 وقد بلغ من العمر 49 سنة.

**ب-مؤلفاته:**

رغم أن توما الاكويني لم يعمر طويلا (49 سنة) إلا أنه كان غزير الكاتبة. ويمكن تقسيم كتاباته، حسب تصنيف حسن حنفي، إلى ستة مجموعات:

**الأولى- المجموعات اللاهوتية**

**ثانيا-الشروح على الكتابات الفلسفية:**

**ثالثا- الكتب اللاهوتية:**

**رابعا-المسائل المتنازع عليها:**

**خامسا-السؤال والجواب:**

**سادسا- الكتابات الفلسفية:**

**2 – في علاقة العقل وبالإيمان عند توما الاكويني:**

قبل الحديث عن رأي القديس توما الاكويني بشأن علاقة العقل والإيمان ينبغي أن نشير إلى أن موقفه الفكري من هذه العلاقة يستند إلى التراث الفكري السابق عليه والمتمثل في التيار الأفلاطوني المثالي والتيار الأرسطي الواقعي، هذا من الناحية الفلسفية، ومن المسيحية من الناحية الدينية. هذا الثلاثي هو الذي شكل موقف توما الاكويني من علاقة العقل مع الإيمان.

إذا كان توما بدوره سعى إلى التوفيق، كما فعل سابقيه، بين الدين والفلسفة إلا أن إميل بريه حاول أن يمنح لهذا التوفيق الذي قام به توما تحليلا آخر مختلف عما قام به السابقون على توما، حيث اعتبر أن هذا الأخير لم يعسى إلى التوفيق والتركيب بين الدين والفلسفة لأن السابقون قد قاموا بذلك وليس اكتشاف الحقائق الايمانية لأنها مكتشفة من قبل، وإنما عمل على تنظيم وتمييز الحقائق الدينية من جهة والحقائق الفلسفية من جهة أخرى، والتركيب بين هذين الطرفين هو ما حاول توما فعله.

هذا التنظيم والتمييز بين العقل والنقل يتضح من خلال الفصل بينهما أولا من حيث المنهج وثانيا من حيث الترتيب، أما من حيث المنهج فالعقل يشتغل وفق مبادئه، وكل شيء يخضه لهذه المبادئ، أما الايمان فإنه يقدم حقائق إما تكون مسجلة في الكتب الدينية وإما تكون بما يتوافق مع فكرة كمال الله وإما بما يتوافق مع قدرة الله المطلقة، أما من حيث الترتيب فإن مسار العقل هو تصاعدي حيث ينطلق من المحسوسات ليتنقل إلى المعقول، أما الإيمان فمنحاه تنازلي ينطلق من الله إلى المحسوسات.

والفرق بين الفلسفة واللاهوت يعود إلى المسار الفكري الذي سلكه كل واحد منهما فاللاهوتي يصل إلى الله عن الوحي وأما الفيلسوف فيصل إليه عن طريق التفكير العقلي فالحقيقة التي يبحثان عنها واحدة ولكن طريقا الوصول إليها مختلفان. وإذا كان القديس أوغسطين والقديس أنسلم وغيرهما اعتقدوا أن العقل بإمكانه النفاذ إلى كل الحقائق الايمانية والبرهنة عليها فإن توما يعتقد أن هناك حدودا يقف عندها العقل حيث لا يستطيع البرهنة على بعض الحقائق الايمانية. وفي حقيقة الأمر أن هذه المحدودية التي تحكم العقل في فهم بعض الحقائق الايمانية لا يأخذها توما من الفكر اللاهوتي المسيحي أو من الدين المسيحي ذاته وإنما هي فكرة تعود بالأساس إلى فلسفة أرسطو حيث يقول توما متأثرا بهذا الأخير ما يلي:" لا يمكن للعقل البشري أن يبلغ، بملكته الفطرية، إلى ادراك جوهر الله بالذات، لأن معرفة عقلنا تبدأ بمقتضى نمط الحياة الحاضرة، بالحس، ولهذا فإن ما لا يقع تحت الحواس لا يمكن أن يدرك من قبل العقل البشري، إلا إذا جرى استنباطه بدءا من الحواس. والحال أن المحسوسات لا يمكن أن تقود عقلنا إلى أن يرى فيها كنه الجوهر الإلهي، لأنها لا تعدوا أن تكون معلولات لا تضاهي شرف العلة." وإذا كان العقل عاجز عن ادراك بعض الحقائق الايمانية فإن هذا لا يعني أن هناك تعارضا بين الحقائق الايمانية والحقائق العقلية أو أن أحدهما تبطل الأخرى وإنما يعود إلى نقص العقل في ادراك وفهم بعض الحقائق الايمانية، فإذا العقل هو الوسيلة التي من خلالها يمكن أقناع الكافرين الذين لا يؤمنون بالوحي بصدق الحقائق الدينة فإن العقل بمقدوره أن يبرهن على أم الله موجود وبخلود الروح إلا انه عاجز عن اثبات في اثبات المسائل المتعلقة بالثالوث والتجسيد والحساب، وهذا فإن توما يميز في فلسفته بين ما يمكن تبريره في الدين من الناحية العقلية وبين ما لا يمكن تبريره. وعموما يمكن القول أن توما الاكويني يحدد علاقة الفلسفة بالدين في ثلاثة نقاط: الأولى لا يوجد تعارض بين الفلسفة واللاهوت، وثانيا: الوحي أعلى مرتبة من العقل، وثالثا الفلسفة في النهاية ماهي إلا خادمة للدين.

**3- الله، براهين وجوده وصفاته:**

في كتابه الخلاصة اللاهوتية، قدم لنا توما الاكويني خمسة براهين على وجود الله كلها تنطلق من العالم المحسوس لتصل إلى ادراك الله. على الرغم من أن توما عاش في العصور الوسطى أين كان الايمان هو السائد والأغلبية تعتقد بوجود الله، حتى أن شاع عند أقرانه من الفلاسفة واللاهوتيين السابقين عليه ومعاصرين أن فكرة الله فكرة فطرية في الإنسان ولا تحتاج إلى برهان. إلا أن توما يعتد أن هذه المعرفة بوجود الله ليست واضحة بذاتها بالقدر الذي يعتقده هؤلاء وإنما تحتاج إلى توضيح.

**البرهان الأول**: يقوم هذا البرهان على فكرة الحركة (بمفهومها الأرسطي) أي لا تعني فقط الانتقال من مكان إلى آخر وإنما أيضا التحول في كم والكيف، بمعنى أن الحركة لا تتعلق فقط بالأشياء المادية وإنما أيضا بالروحية.

عن طريق الملاحظة الحسية ندرك أن هناك حركة في العالم، وكل ما يتحرك له سبب ما يحركه، أي أن كل متحرك له لابد له من محرك، والحركة تعنى فلسفيا (بالمفهوم الأرسطي) الانتقال من القوة إلى الفعل، إلا أن هذا الانتقال من القوة إلى الفعل لا يمكن أن تستمر إلى ما لانهاية لأن هذا عبثا من الناحية العقلية، فسلسلة المحرك والمتحرك لا ينبغي أن تسير إلى ما للانهاية وإلا فإنه لا يمكن تصور بداية للحركة، لهذا يجب أن تتوقف الحركة عند محرك هو أساس حركة كل الأشياء إلا أنه في حد ذاته لا يتحرك، وهذا المحرك الذي لا يتحرك هو الله.

**البرهان الثاني:** هذا البرهان قائم على مبدأ العلية.حيث يقر هذا البرهان على أن كل أثر في هذا الوجود له مؤثر أو علة، ومن الناحية المنطقية لا يمكن لشيء أو يكون علة ذاته لأن ذلك يفترض وجوده قبله ذاته أي أن يكون سابقا لذلك، ولما كانت سلسلة العلل لا يمكن أن تمتد إلى مالا نهاية فإنه ينبغي أن نصل إلى علة لا علة لها. وهذه العلة هي الله.

**البرهان الثالث:** وهو برهان قائم على فكرة الممكن والواجب. وهذه الفكرة تتضح عندما نتأمل في الموجودات فجد أن بعضها يعضها يظهر إلى الوجود ثم تتعرض تختفي بفعل قانون الكون والفساد، مما يدل على أن هذه الموجودات يمكن أن تكون موجودة ويمكن الاستغناء عن وجودها، أي أن وجودها ليس وجودا ضروريا ولو كان ضروريا لما اختفت من الوجود. وهذ الصنف من الموجودات يطلق عليها تسمية ممكنة الوجود، وما هو ممكن الوجود فإن وجوده يستمده من غيره، الذي يسمى بواجب الوجود بغيره، ولا يمكن الذهاي إلى مالا نهاية في سلسلة واجب الوجود بغيره إلى مالا نهاية وإنما يجب التوقف عند واجب الوجود بذاته الذي لا يحتاج إلى غيره لأن يكون موجودا، وهذا الواجب الوجود بذاته هو الله.

**البرهان الرابع**: يقوم على التراتبية في الكمال، فهناك ما هو أكثر كمالا وما هو أقل كمالا، وهذا الترتيب لا يمكن أن يتحقق دون أن يكون هناك مثالا للكمال، أي أن الأشياء متفاوتة في الكمال بالاستناد إلى الكمال المطلق، فالتراتبية في الكمال لا يمكن أن يمتد إلى مالا نهاية وإنما ينبغي أن يتوقف عند الكمال المطلق وهو الله.

**البرهان الخامس:** يستند هذا البرهان على فكرة النظام الموجود في العالم، فالذي يتأمل في الاعلم يجد أنه في منتهى الدقة والنظام وهذا لا يمكن أن يكون محض صدفة وإنما هو هناك علة قائمة هي التي أوجدته وترعاه وهذا العلة المدبرة هي الله. إن الذي يتأمل في براهين القديس توما يجدها كلها متشابهة ويمكن ارجاعها إلى برهان واحد.

**صفات الله:**

يقر توما الاكويني أن هناك تناسب بين قدرة الإنسان العقلية وادراك صفات الله، فالإنسان مهما حاول فلن يستطيع ادراك ماهية الله، ومنه كل ما نعرفه عن الله لا يكون إلا بشكل سلبي. والمعرفة السلبية تقتضي أن نميز الله عن باقي الموجودات الأخرى وننزه عن كل الصفات التي لا تتوافق مع فكرة الكمال المطلق. إن الله ليس كباقي الكائنات الأخرى التي تتشكل من صورة وهيولى، أو من ينتقل من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل، فوجوده عين ماهيته ووجوده وجود بالفعل، ولا يمكن أن يكون الله موجود بالقوة لأن الانتقال من القوة إلى الفعل يتطلب علة لهذا الانتقال، كما أن الوجود بالقوة يسبق الوجود بالفعل، والله موجود منذ الأزل، لهذا فإن وجود الله وجود بالفعل فقط. والله بسيط في ذاته وليس مركب، لأن التركيب يقتضى أولا مركب أو علة لهذا التركيب، هذا من جهة ومن جهة أخرى يقتضي ذلك تراتبية في الأجزاء المركبة، لهذا فإن الله بسيط في ماهيته، كما أنه غير مادي لأن المادة تخضع للكون والفساد بل هو روح خالصة. ومن الصفات الايجابية التي يمكن اثباتها هي أن الله موجود، وأنه لا متناه لأنه لا تحده حدود، وأنه سرمدي ليس له بداية وليس له بداية، والله مدريد وخير.

إذن هناك صفات سلبية مثل أن الله لا جسماني وغير متحرك وغير متغير، والتركيب والانفعال...إلخ وهذا الطريق ينفي عن الله كل ما لا يتوافق مع كماله وتنزيهه، أما الطريق الايجابي فإنه يؤكد وجود صفات إلهية مثل الوجود، الخير، الإرادة، العلم...إلخ.

**4- الخلق :**

يقر توما أن الخلق عند الله هو خلق من العدم، لأنه الخلق لوكان من مادة قديمة فإن هذا يعني أن هناك شيئا قديما قدم الله وهذه المادة إما هي الله ذاته وإنما مختلفة عنه، ولما كان الله بسيط وغير متغير فإنه لا يمكن أن يكون هو ذاته المادة، ولما مكان الله هو الموجود الواحد الضروري فإن ذلك ينفي وجود شيء قديم معه فالله هو الموجود الوحيد الذي يملك وجودا سابقا أسبقية مطلقة. وهنا يختلف توما مع ارسطو كل الفلاسفة اليونانيين الذين يعتبرون أن الله خلق كل شيء سوى الوجود ذاته في حي توما الإكويني وغيره من المسيحيين يعتبرون أن الله خلق كل شيء حتى الوجود ذاته.

**5- الميتافيزيقا عند توما الاكويني:**

كل الموجودات عند توما تشترك في الوجود العام، وهذا الاشتراك يختلف من كائن إلى آخر باختلاف الماهية التي يمتلكها، والماهية تعني الحدود التي يوجد فيها الكائن، فالانسان موجود لكن وجوده ليس كليا وإنما وجود محدود وهذه الحدود هي التي تشكل انسانيته، كذلك الأمر بالنسبة للحيوانات والنباتات...إلخ فكل الكائنات محدودة داخل هذا الوجود اللامحدود، وهذه الحدود التي تؤطر الكائن هي التي تسمى بالماهية، وبذلك فإن حدود أي كائن هي ماهيته. والله هو الكائن الوحيد الذي لا حدود له لأن وجوده مطلق، ومنه فإنه وجوده هي عيه ماهيته.

إلى جانب التفريق بين الوجود والماهية يفرق توما أيضا بين الوجود بالقوة والوجود بالفعل وهذا التقسيم في الأساس يعود إلى أرسطو. هناك تفاعل بين الوجود بالفعل (ما تبدوا عليه الأشياء في الواقع) والوجود بالقوة ( الصورة غير المحددة الخفية)، ويحدث التغيير والتحول في الموجودات حينما يتم الانتقال من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل، وهذا التحول إما يكون سببه داخلي وهذا ما نجد في الكائنات الحية، وإما سببه خارجي وهذا ما نجده في الموجودات غير الحية مثل التراب والماء والأحجار، كل التغيرات التي تحدث في هذا الوجود يفسرها توما وفق مبدأي الوجود بالقوة والوجود بالفعل. ويمكن أن نورد هذا المثال لتوضيح هذه الفكرة: في ورشة النجار توجد قطعة من الخشب، يستطيع النجار أن يجعل منها إما طاولة أو كرسي أو سرير...إلخ فهذه الطاولة أو الكرسي أو السرير هي موجود بالقوة في الخشب وعندما تتخذ قطعة الخشب صورة محددة (طاولة مثلا) فإن الطاولة هنا تصبح وجودا بالفعل بعدما كانت في السابق موجودة بالقوة.

وهناك مبدآن يحكمنا الوجود بالقوة والوجود بالفعل: لا يمكن لأي كائن الانتقال من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل إلا بتدخل كائن آخر موجود بالفعل، ولا يتحدد الفعل ولا يتضاعف إلا إذا كان في الأصل موجودا داخل قوة فقطعة الخشب تستطيع أن تتحول إلى كرسي أو طاولة ولا يمكن أن تتحول إلى إنسان حي. ويقسم توما الموجودات استنادا الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل إلى قسمين: ما هو موجود بالفعل وهو الله، وما هو موجود يجمع بين القوة والفعل ويشمل كل الموجودات الأخرى، الأول لا متناهي وواحد، والثاني متعدد ومتناهي، الأول موجود بذاته لأنه ليس بحاجة إلى غيره حتى ينتقل من القوة إلى الفعل وغنما هو موجود بالفعل منذ الأزل، والثاني موجود بغيره، لأنه دائما يحتاج إلى علة تخرجه من القوة إلى الفعل.

**6- نظرية المعرفة:**

المعرفة عند توما هي معرفة تنطلق من الحواس، فأول شيء يدركه الإنسان هو الوجود، ومنه تتشكل كل معارفه. والموجودات كلها تتكون من مادة وصورة، فالمادة هي أساس التميز والتفرد بين الأشياء، وأما الصورة فهي موضوع الادراك العقلي. إن الأشياء المادية الحسية ليست مادية بشكل مطلق بل تحتوي بعدا معقولا محايث لها، بمعنى أنه داخل المحسوسات توجد المعقولات، وهذه المعقولات موجودة بالقوة، وحتى تنتقل من القوة إلى الفعل يجب أن تتدخل ملكة أخرى تكون موجودة بالفعل، يسميها توما ب"العقل الفعال" وهو عقل مباطن للإنسان ومحايث له، وبفضله يستطيع الإنسان إدراك الماهيات دون العودة إلى الوحي. وإذا اردنا أن نوضح الفكرة فإن العقل الفعال دوه هو استخراج المعقولات الموجودة بالقوة في المحسوسات إلى الوجود بالفعل في العقل.

إذا كان أوغسطين يعتبر قمة الفلسفة في عصر الآباء فإن توما يعتبر قمة الفلسفة في المرحلة المدرسية. وإذا كان أفلاطون والافلاطونية المحدثة هي دعامة الفكر الفلسفي المسحية في المرحلة الأولى فإن الأرسطية هي دعامة الفلسفة المسحية في القرن الثالث عشر. ومع اكتشاف ارسطو أثرت فلسفته في العديد من الأمور أولا في المساءل المعالجة وكذلك في نمط معالجها فلم تعد البلاغة الأدبية هي المؤسسة للخطاب الفلسفة وإنما التفكير الذي يعتمد بشكل كبير على المنطق والجدل.

أهمية توما تتمثل في أنه قدم لنا فلسفة توفيقية بين الأرسطية والعقيدة المسيحية، وهذا التوفيق لم يكن سهلا بالمرة فقد كان المناخ الفكري الذي ظهر في مشحونا ومتأزما حيث كانت افكار أرسطو محرمة وممنوعة وهذا ما يبنه "المجلس الباريسي" الذي منع تداول الافكار الأرسطية في الطبيعة عام 1210 وعلى الرغم من هذا الوضع التاريخي الصعب والمشحون قدم توما فلسفة توفيقية بين المسيحية والأرسطية التي لاقت قبولا من طرف الكنيسة الكاثوليكية، هذا التوفيق لا يعني القبول التام بأفكار أرسطو التي تتصادم بشكل لا يمكن تأويله لهذا نجد أن توما رفضا قطعا الطرح الأرسطي القائل بأقدمية العالم، وكذلك فكرة العناية الالهية التي يرفضها الطرح الارسطي الذي يعتقد أن الله لا يكترث ولا ينفعل ولا يأبه بالعالم.